اللغة العربية والمصطلحات العلمية

رأي الدكتور محمد شرف بك

صاحب المعجم الطبي العلمي المعروف

لم نعهد في تاريخ البشر فتحاً أعظم من فتح اللسان العربي ، ولا أشد سرعة منهُ ، فانهُ ولا جدال قد عمّ اجزاء كبيرة من العالم ، ولم ينازعهُ الشرف في كونه لغة عامة ، او لسان فكر ديني او سياسي اسمى من اختلاف العناصر ، الا لغتان اللاتينية واليونانية ، ولكن أين مجال هاتين اللغتين في السعة من الاقطار التي عمّ انتشار العربية فيها . ولقد اختارت الامم الكثيرة التي خضعت للمدنية الإسلامية التي ضربت بجرانها من الصين الى المحيط الاطلنطي ، اللغة العربية في تدوين مصطلحاتها العلمية ، وكان شأنها في ذلك كاللغة اللاتينية فيما بعد ، لما أخذت الامم الغربية عن العرب في الأندلس وايطاليا ما خلفتهُ المدنيات السالفة

ولم يبق هذا التراث على حالته التي كان عليها ، بل أدخلت العرب عليه زيادات في كل فرع من فروع العلم وفتح العلماء الاعلام والفلاسفة المشهورون الذين ظهروا في بغداد وقرطبة ومصر مجالاً لتقدم العلوم ، وضربوا بسهم صائب في رفعة منار المدنية ، مدة ستة قرون ، كانت فيها سائر الامم الاوروبية غارقة في بحار جهالة القرون الوسطى ، فترجمت الى العربية في عصر الدولة العباسية وخصوصاً في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون ، كتب فلاسفة اليونان . وأول من بدأ حركة الترجمة ، خالد بن يزيد الذي تعلم الطب على استاذه مريانوس الكاهن المسيحي ، الذي كان في الغالب مدرّساً في مدرسة الطب بالاسكندرية

والعربية ليست من اللغات الميتة ، حتى يزهد بعض ابنائها فيها ، ويتعلموا العلوم بغيرها ، بل هي لغة كاملة وغنية اي غنى . هي الآن لغة أكثر من ٧٠ مليوناً من البشر ، نازلين في اجمل اقطار الارض ، في آسيا وافريقية ، وهي لسان ديني لما يقرب من اربعمائة مليون من المسلمين ، ولسنا معاشر الناطقين بها دون ارقى امم الحضارة الحديثة بعقولنا او ذكائنا ، فتاريخنا موضع الدهشة على توالي العصور ، وإنا اذا عرانا ضعف سياسي قد أخّرنا عن المجتمع العصري ، وقصرنا عن اللحاق بالسابقين فيه ، لا نلبث بتماسكنا ، وتعاضدنا وتفانينا بحب قوميتنا ولغتنا ، أن نساوي غيرنا قريباً

معروف عن العرب ما كان لهم من لطف الحس وصفائه ، ولصاعة الفكر وارتقائه ، وفصاحة اللسان وحسن بيانه ، ومعروف عنهم ايضاً شغفهم العظيم بلغتهم ، وتعظيمهم لشأنها وافتخارهم بها ، واعتقادهم انها اشرف اللغات وأوضحها ، واغناها بل اجلها واكثرها انقياداً ، تتجلّى فيها الدقة والرقة وحسن الصنعة ، والادلة على صحة ذلك كثيرة مثبتة في كتب اللغة والادب. ولم تُغفل العرب وضع شيء من الالفاظ التي تدلّ على جميع ما شاهدوهُ او احتووهُ حتى اصبحت المفردات في وقتهم زائدة عن حاجة التعبير عن المحسوسات

وان وجدنا في لغتنا اليوم قصوراً في التعبير عن المعنويات فما ذلك الا لاننا أهملنا الجري على سننهم في الاستحداث . ألا ترى كيف يغني فيها الحرف الواحد عن الكلام الكثير؟ ألا ترى فيها الايجاز والبعد عن الاكثار ظاهراً في أمثالهم وخطبهم وأشعارهم ؟ وفيها من الالفاظ المفردة التي لا يشرعها في اللغات الفرنجية الا بعبارات ؟ ألا ترى شدة عنايتهم بالالفاظ ومراعاتهم لها بالتصليح والتهذيب والإحكام ، وعنايتهم بالمعاني وتخيُّر أحسن الالفاظ لتأديتها واظهار أغراضها ومراميها ، ولتكون أوقع لها في الآذان وأذهب بها في الدلالة على القصد ؟ ألا ترى في كثرة مفرداتها وتفرُّعها وتشعُّب طرق التركيب وتنوّع الاشتقاقات القياسية وسيلة لصوغ ألفاظ تؤدي ما لا نهاية لهُ من المعاني ؟ أليست هذه مزايا تجعل العربية راجحة على اليونانية واللاتينية (وهما اساس اللسان العلمي) والتان تخذان من النحت طريقة لوضع الالفاظ المركبة التي تشاكل المعاني ؟ فقد سهلت على أبناء العربية استحداث اوضاع لمدلولات العلوم الدينية والعربية والرياضية والطبيعية والطبية وغيرها لما شرعوا في نقلها ، وهذه معدّات حسنة للغاية في اللغة تجعلها لائقة للانشاء العلمي

نشرنا في مقتطف يناير الماضي مقالاً مخطوطاً لمنشيء هذه المجلة المرحوم الدكتور صروف الم فيها الماماً موجزاً بمسألة « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » ووجوب توحيدها . وقد بعثنا بهذا المقال الى طائفة من اكبر العلماء ليبدوا آراءهم في هذا الموضوع الخطير على صفحات المقتطف . وسننشر هذه الردود تباعاً في الاجزاء التالية

ولم يكن كتّاب العرب أهلاً للقيام بالترجمة العلمية والتعريب العلمي لانهم لم يحسنوا فهم اليونانية التي كانت تعلم في بغداد ولم يعلموا شيئاً من العلوم الطبيعية ، فلم نسمع بواحد منهم قام بتعريب شيء من

الكتب اليونانية علمية كانت أو أدبية . والذين تولّوا نقل علوم اليونان الى العربية في عصر الخلفاء كانوا من النسطوريين والكلدانيين والاسرائيليين كابن الحمصيّ والطوسيّ وحنين بن اسحق العبادي النسطوري المتوفى سنة ٢٦٣ هـ — ٨٧٦ م وابنهُ اسحق ويحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٣ هـ — ٨٥٧ م وأبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكلداني المعروف (ابن وحشيه) الذي عاش في سنة ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م وآل جرجس ابن بختيوشع وتلاميذهم وجبريل عيسى بن صهار بخت واصطفن بن بسيل وشيخوص بن باتون والحجاج بن مطر وابن البطريق وسليمان وأبو بشر متى بن يوسف المتوفى سنة ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م وابو زكريا يحيى بن عديّ التكريتي المتوفى سنة ٣٦٤ هـ — ٧٤٩ م وابو علي عيسى بن زارة مترجم التاريخ الطبيعي وكتاب الحيوانات وقسطا بن لوقا وغيرهم . وهؤلاء كانوا علماء أكثر منهم أدباء ، وان كانوا تعلموا العربية فانهم لم يتفقهوا فيها ولم يتقنوا آدابها . لذلك نجد ما عرّبوهُ مشحوناً بالالفاظ اليونانية مع ان لمعاني العربية مرادفات . وكان اسلوبهم ركيكاً بالنسبة الى نظائره من كتب الادب ، أو لما عرّب من الفارسية بمعرفة من برزوا في الفنين كابن المقفع المتوفى سنة ٧٦٠ م وأمثاله . ومع هذا فقد كان تعريبهم مقبولاً وافياً بالمرام لحدّ معيَّن من جهة الامانة في النقل وحسن التأدية بتحصيل المعاني المقصودة واخراجها على وجه يقرب من الصحيح ، في صورة تتفق مع قوام اللغة العربية ومشربها ، وبأسلوب تسوغهُ أذواق الناطقين بها

والذي يُستخرجُ من استيعاب معرّبات العرب أنهم لم يجروا في التعريب على نمط واحد يصحّ اتباعه الا في احوال معينة . بل نجدهم صوّروا الكلمات المعرّبة وخصوصاً اليونانية بصور شتى ، يصعب على قارئها رجعها الى اصولها أو تطبيقها على الاسماء الحالية تطبيقاً صحيحاً . والنسّاخ أحقّ باللوم لانهم لم يضعوا التنقيط على الحروف العربية بالضبط الوافي فادّى ذلك الى التصحيف والتحريف وعدم فهم المصطلحات المعرّبة والتخليط في الازمان التالية . ولم يذكر أحد من أئمة اللغويين اي قواعد لما يعرّب من الكلمات الاعجمية توجب علينا اتباعها ، وان ذكر بعض أصحاب المعاجم قليلاً من المعربات في موادأصولها أو استطراداً في غير مظان موادها ، وقد أجروا بعضاً منها مجرى أصول الكلام العربي في الصرف واشتقوا منها كما يشتق من أصول كلامهم

عدم سد باب اتساع اللغة عند العرب وتشجيعهم في التوسع والاصلاح

وقد وجدت العرب اسماء تفرّدت بها الفرس وامم اخرى دونها فاضطرت الى تعريبها او تركها كما هي وورد كثير منها في كتب اللغة والمعاجم ومن امثالها الكُوز ، الابريق ، الطَّست ، الطَّبق ، من أنواع الاواني . الشَّور ، السِّنجاب ، الفيل ، من الحيوانات ،

الديباج ، السُّندُس من الملابس . الياقوت ، البجاد ، البَلُّور ، اليشب (عبرية) من الجواهر . والسَّميذ ، الدَّرْمك ، الجرْدق ، الجرْشازج من ألوان الخبز . الجُلاّب ، السَّكَنْجبين ، الجلنجبين ، الميسة من الاشربة والانبجات . الهُلام ، الإسفيذباج ، الجرْذباج ، والفالوذج ، والسَّكباج ، والزماورد ، من ألوان الطبيخ والحلوى . المشلوز . والرصاص والزئبق والزيتون . والفلفل ، والكرويا ، والقرفة ، والزنجبيل ، من الافاويه . والنرجس ، والبنفسج والنسرين ، والخيرى ، والسّوسن ، والمرزنجوش ، والياسمين ، والجُلّنار من الرياحين . والمسك ، والعنبر ، والكافور ، والصَّندل ، والقرنفل من انواع الطيب وكلها فارسية . كما استعارت العرب من اليونانية الفاظاً كثيرة نذكر منها : الفِرْدَوس ، القسطاس ، السَّجَنْجَل ، البطاقة ، القرْسطون ، الأسْطُرْلاب ، القُسطريّ ، القُسطل ، القُبْرُس ، البطريق ، القراميد ، الترياق ، والدرياق ، القنطرة ، القيطون ، النقرس ، القُولَنج ، القلم ، الحوت ، الكنْدارة ، الإصْبور ، الاقليس والرساطون والإسفنط والعلوز والسريس والموس والماليخوليا الخ ،

هذا بخلاف ما أخذ من الحبشية والعبرانية والسريانية والسنكريتية والنبطية والكلدانية واللاتينية في فروع المعارف على اختلافها قبل أن يتسنى لهم وضع ما يقابلها في لغتهم

ومن ذلك نرى أن النحاة واللغويين لم يصدّوا الأبواب في وجوه من أراد إنماء اللغة باستعارة ألفاظ اعجمية تهذّب للدلالة على مالا تقوى لغتهم على تأديته ، بل كانوا حكيمين مجددين يحفلون بصيانة التراث اللغوي القديم بقدر ما يعنون بإنماء الثروة اللفظية كما دعت الحاجة الى ذلك . واذا تأملنا صيغ الاشتقاق العربية وكثرتها ، وشدّة الشابة بها حتى تكون مشتملة على جميع المعاني وجدنا فيها معدّات قوية للتوسع في اللغة . وقد وضع اللغويون قواعد للاشتقاق وتصرّفوا تصرّفاً واسعاً حتى يكون صالحاً للتمييز واستيعاب اللغة واستدراك ما لم يوجد في كتبها وإنمائها . وكل ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم ويصحّ اجراؤه مجراه وان لم ينطقوا به . واذا كان القياس لا يمنع وضع لفظ جديد فاتباعه لتأدية معنى جديد لا غبار عليه بل هو مستحبّ جداً . ولم يكن العرب أعداء للتجديد والتوسع والابتداع في عصر من عصور نهوضهم وقد أباحوا بناء الالفاظ على مثل جديدة . وقالوا إن تركهم للبناء بتلك الكيفية ليس بمانع من بنائه كذلك ولم يوجبوا على المتأخرين ايراد مثل في ذلك من كلامهم القديم . فقد قال الجاحظ ما على الناس شيء اضرّ من قولهم ما ترك الاول للآخر شيئاً . والاشتقاق في العربية لا يوجد له مثيل في اية لغة ويقوم مقام النحت في اللغات الفرنجية التي تنحت ما تستحدثه من أصول إغريقية أو لاتينية . ولاختلاف هذه اللغات

عن العربية في تقديم المضاف اليه على المضاف لا يمكن تعريب ألفاظهم الكثيرة الأعجمية الا الفصحى والشفاه ويشق على العربي التلفظ بها وينفر عنها حسه وينبذها ذوقه ، ولذلك نجد فيه اصلح الوسائل لابتداع الالفاظ الجديدة

التعريب في العصر الحاضر

وقد سار معربو هذا الزمن ومترجموه في نقل اللغات الفرنجية على طرق مختلفة ، فابتدع هذا اسلوباً جرى عليه خالفه فيه غيره ، واستن آخر سُنَّة لم يتابعه عليها احد. وصار كل معرّب يضع لنفسه منهاجاً لتصوير الالفاظ والمعاني او لتعريبها ، وانطلقت الاقلام والالسنة الاعجمية ، ووضعت اوضاع وصيغت ألفاظ بطرق مختلفة لا تؤدي المقصود منها ، وشطّ المعرّبون عن الصواب شططاً بعيداً . وجاء فيما ظهر من الكتب العلمية المعربة والتي تدرس في مدارس الحكومة او ما نشر في الصحف اليومية والمجلات خلط كثير. وأكثر هؤلاء المعربين ممن درسوا بلغات فرنجية وابتعدوا عن العربية ، فتجدهم يستعملون الالفاظ المبتذلة والسخيفة ، والكلمات العامية الركيكة ، ويتصرّفون بالمعاني ويتناولونها بالزيادة أو النقص أو التشويه أو يستعملون المجازات التي لا تتم بها المعاني المقصودة تماماً لعدم وقوفهم على الالفاظ العربية المقابلة ، أو لعدم وجود طريقة تتبع ، أو معجم وافر يُستدعى للمعونة حتى صار أكثر المعرّبات لا يتفق في وحدة الاصطلاح أو المدلولات

وتجد أساليب مختلفة لكل ناقل باختلاف مشربه واللغة الفرنجية التي استقى منها . ولاختلاف القوام اللغوي وخواص التركيب ونسب الإسناد بين الالسن ، يسهل على القارىء المدقق تعرّف المصدر الذي عُرّب عنه ، فرنسيًّا كان او انجليزيًّا . فان تناولت كتاباً مما عرّب بهذه الاساليب ، او مجلة من المجلات الطبية العربية او المصرية ، او الجرائد الهندسية او الزراعية ، تجد ما يكتب فيها كلاماً ارسل سدّى غير محتمل وغُفلاً من الاعراب فلا ترتاح نفسك الى قراءته ، ولا تستخرج منه فائدة ، لان أكثر المعربين يكتبون بروح فرنجية ، وبلغة لم تطبع في نفوسهم ، فيتخذون كل لفظة فرنجية ويضعون لها مقابلاً عربيًّا ، أو يضعونها كما هي على حالها ، بدون حسن تطبيق في الهجاء العربي ، أو يصوغونها في قالب غريب ، بدون مراعاة للمعاني وخدمتها واستجماعها ، وبدون أدنى تأمل في أحكام النحو ، أو طلاوة التركيب وانسجام الاسلوب العربي ، فلا تعرف إن كنت تقرأ كلاماً عربيًّا أو فرنجيًّا

في تتمة هذا المقال الحصيف يتناول الدكتور شرف المقابلة بين القدماء والمحدثين ويبدي خلاصة مقترحاته العملية لمعالجة هذا الموضوع الخطير — قرِّف مقتطف مارس القادم